اغنيـة حب

كنت دائما اود ان اغني . لكن صوتي كان نشازا ، ولم اكن استطيع ابدا ان اجيد نغمة واحدة ، لسوء حظي . الى ان لقيتها. قالت اني ان اردت فعلا ان اغني ، فعليّ اذاً ان اغني ، مهما كان وقع صوتي.

قلت : « لكن صوتي نشاز » .

قالت : « غنّ عن الحب . الناس تستهويهم اغاني الحب الحزينة » .

وهكذا ابتدأت . لم يحفل الناس بي اول الامر . ثم اخذوا يصغون . بل ان بعضهم احب اغانيّ . كانت عيناها خضراوين ، وكان فمها واسعا وحاجباها نبيلين مقوسين بروعة . كانت تحبني وتحب العـالم كله ، ما عدا اليابان . قتل اليابانيون اخاها في الحرب الاخيرة .

ومع هذا فقد تركتني ، لاني ترددت .

امر محزن ، نوعا ما ، لاني وان كنت احب ان يسمع الناس غنائي ، فانني اغني لها خاصة .

خطوة للامـام

كانت ممرضة .

وكان معلما .

تزوجا .

كان اسمر داكنا ، اسود اذا شئت . لم تكن سمرتها داكنة ، بيضـاء اذا شئت .

كان انفه افطس ، لكنه لم يكن قبيحا . وكان انفهـا اغريقيا ، جذابا باي قياس قسته .

وكان شعرها نحاسي اللون ، ناعما وطويلا، وكانت عيناها رماديتين، تذكّران الرائي بامسيات معينة .

وكانت عيناه سوداوين ، وكـذا كان شعره الذي لم يكن اسود فحسب بل كان اكرت ايضا .

في مكتب التسجيل في فولام رود ، حيث اخذهـا وحيث تركته يأخذها ، كانت تصرفات المسجل لا غبـار عليها ، لكن خيّل لبعض الحاضرين انه كان محرجا بعض الشيء .

واخذها معه الى اهله .

اخذ يعلّم واخذت تمرّض ، وولدت له ابنا .

« ماذا نسميه ؟»

« سامي . يسهل لفظه ، بالانكليزية وبالعربية » .

ونما صحيح الجسم وافر الحكمة ، فكما الاب كذلك الابن ، والام ممرضة . اما الغنى فلم يكن مؤكدا .

كانت عيناه رماديتين ، تذكّران الرائي بامسيات معينة في لندن .

وكان شعره نحاسي اللون ، وكان مع هذا اكرت اشعث .

لم يكن انفه اغريقيا ولا كان افطس .

وهو امر حسن .

« سيكون طبيبا » ، تردد امه باستمرار .

الشيء الآخر

قابلته في الغراند اوتيل في الخرطوم . كان يتحدث عن الانكليز بكثير من المرارة . مما جعلني اشتبه في امره .

« لماذا تكرههم الى هذا الحد ؟ »

« انهم استعماريون » .

قلت له ، كيما اثـيره : « لكنهم لم يعودوا يستعمرون » . لكنه اصر .

وعدت اسأله : « لماذا ؟ »

« لانهم لا يعطونك غرفة تسكن فيها ، ولانك لا ... »

لم يقلها فعلا ، لكني عرفت .

اما من حيث الغرف ، فذلـك امر عسير في بعض الاحيان ـ هذا صحيح .

« ولكن ألم يعثر لك المعهد البريطاني في النهاية على غرفة في احـدى نواحي تشزويك ؟ »

قال : « في النهاية » .

حينئذ ، كان ما سيحدث قد حدث بالفعل .

اما عن الشيء الآخر – « فليس باستطاعة احد ان يحصل لـك على شيء مثل ذلك . عليك ان تفتش . اليس كذلك ؟ انها بلاد تستطيع فيها ان تفعل ما تشاء » .

« لكن ان تظل تفتش سنوات ثلاثا ولا تلقى ولا واحدة – امر غريب ، اليس كذلك ؟ »

« بلى ، امر غريب » .

غريب فعلا ، لان الرجـل على قسط كبير من الذكاء ، ويقولون انه كيماوي لامع .

كان يريد ان يأخذ شهادة ويأخذ زوجة . حتى في الخرطوم يجد ذلك ذلك صعبا . بعض الناس مثل هذا .

اما من حيث الحصول على غرفة ، فانا اعترف ان ذلك امر عسير جدا في كثير من الاحيان .

لك حتى الممات

كانت تعمل كاتبة اختزال في شركة التلفزيون . وكانت تسكن مع عائلة في فينشلي ، وتقضي عطلات الاسبوع مع اسرتهـا في سيدكب . ولم يكن يبدو انها متعلقة بأهلها كثيرا .

التقيا عشية رأس سنة ١٩٥٩ ، في حفلة رقص نظمها معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن .

« ماذا تدرس ؟ »

« اعدّ رسالة الدكتوراه في التاريخ » .

كان رقصه فظيعا ، لكن معرفته للغة الانـكليزية كانت جيدة . بدا صغير السن جدا – وربما كان هذا مظهرا خادعا . وكان صوته عذبا ، ورائقا للاذن .

كانت اميل الى البدانة ، فاعجبه ذلك . كانت تقاطيع وجهه وسيمة حادة ، الامر الذي لم يغب عنها .

واعطى كل منهما الآخر رقم تلفونه .

بعد ثمانية اشهر حصلت المعجزة. ومع هذا –

قالت : « لست ادري » .

قال : « انا ايضا لست ادري » .

« عد الى بلدك ، وانا سأسافر – الى كندا ربما » .

وهكذا عاد ، ليدرّس التاريخ في احدى المدارس الثانوية .

وكتبت له من كندا تقول انهـا قد حصلت على وظيفة في شركة الاذاعة الكندية وان الحياة في اوتاوا لا بأس بها .

وكتب لها رسائل طويلة تلتهب عاطفة ، وكان يختمها دائما بقوله : « لك حتى الممات » – قد يخيّل اليك انه كان يبالغ .

كتبت تقول : « الراتب جيد ، وكندا ممتعة ، لكن لماذا علينا ان نكون بعيدين هذا البعد واحدنا عن الآخر ؟ »

اجاب : « لانه ، من جهة ، ليس من العدل ان اجرجرك الى هذا المكان ، البالغ الحرارة والكثيف الغبار ، ولاني فقير . لا استطيـع ان اثقل ضميري بك » .

وكانت الرسائل تحمل الحب من افريقيا الى كنـدا ، ومن كندا الى افريقيا ، بانتظام .

وكان الحب يشتد – هكذا كانت تقول الرسائل – واستطيع انا ان اصدق ذلك .

مات بالالتهاب السحائي في صيف ١٩٦١ .

ولم يخبرها بذلك احد .

ظلت بعد هذا باشهر تواصل الكتابة وتسأل : « لماذا لا تجيب ؟ ام انك لم تعد تحبني ؟ »

ثم توقفت عن الكتابة .

الاختبـــار

كانا يعيشان في منطقة سويس كوتيج. هو محامٍ من دربان، وهي ممرضة من نتنغهام . وكانا صديقيّ .

كانا يقيمان حفلة عشية كل سبت . يدعوان اليهـا اناسا من كل نوع ، جلّهم ممن يسمونهم اليوم « افرو اسيويين » . تلميذ طب من نيجيريا ، محاضر جامعي من الهند ، فتاة من الصومال تدرس الخدمات الاجتماعية ، تلامذة مصريون حتى ابان معركة السويس ، جميـع الانواع – ذلك الضرب من الاشخاص الذين يشترون صحيفة « الغارديان » ويقرأون « الاوبزيرفر » و « انكاونتر » ويتحدثون عن الان بيتون . وكان صديقاي يصوّتان لحزب العمال .

كان هذا الطالب الغاني اسود كالابنوس، لكنه – ان انت لم تكترث

للونه – كان وسيما . خلف حاجز اللون كان خفرا ، لكنك ان سمحت له بالدخول كانت انسانيته لا تعرف حدودا . خلف حاجز اللون كنت في امان، لكنك ان ازحته لم يكن ثمة ضمان. كان ذلق اللسان، يجيد الرقص ، يضحك بطلاقة . وكانت من عادته ان يمد لسانه بين اسنانه الشديدة البياض عندما يتكلم، وكانت الفتيات يجدن ذلك جذابا.

لم يكن ينبغي ان تفعل ذلك – لكنها علقت بحبه . ليس هذا فحسب ، لكنهما ايضا هربا معا.

التقيت صديقي صدفة قبل ايام ، على مقربة من مخازن سوان اند ادغار في ساحة بيكاديلي . حييته ، لكنه لم يرد عليّ التحية ، وظل يحدق امامه بعيدا .

سوزان وعلي

كان اسمه علي . واسمها هي سوزان . الخرطوم . لندن . درست الفن في معهد سليد . درس العلوم السياسية في معهد الاقتصاد بجامعة لندن .

قالت : « تزوجني » .

قال : « لا . صعب » .

قالت : « لكني احبك » .

قال : « وانا ايضا احبك . لكن ... » .

ومن ثم عاد الى بلده .

واخذا يتراسلان .

« لكنني احبك يا علي » .

« وانا احبك يا سوزان ، لكن ... » .

ستة اشهر .

كتبت تقول : « قابلت رجلا . سأتزوجه » .

كتب يقول : « لكني احبك يا سوزان » .

وانقطعت الرسائل .

يفكر بها في غالب الاحيان .

وتفكر به من حين لآخر .

لكن ...